يوسف بن الجمال الملتاني: حياتة وجهوده في حقلي التدريس والتأليف

الدكتور محمد شفقت اللّٰه

Abstract

This research deals with the life and scholarly works of Yousaf Bin Al-Jamal Al-Multani (died in 790 A.H.), who was a theologian and Arabic Scholar of the Tughloq era. Al-Multani was appointed a teacher of the Arabic and Islamic Studies at the Madrasa Feroz Shahi (A Royal Institute) in Dehli, by the Toughloq Sultan Feroz Shah. Al-Multani devoted himself to the cause of teaching and spent whole of his life in this duty.

Tawjih-ul-Kalam and Al-Sharh-ul-Yousofi are two famous annotations written by him; the first one is about jurisprudence and the second is about Arabic Syntax This study aims to evaluate his annotations (based upon the available commentories on the said works).

قضىٰ يوسف بن الجمالُ الحسينيّ الملتانيّ جلّ عمره فى تدريس العلوم الإسلامية واللغة العربية' وجعل نفسه وقفاً لتدريسها وقام بتأليف الشروح على الكتب الدراسية كي تكون دليلاً للطلاّب حين لم تُتح لهم الفرصةُ للاتصال بالأساتذة والمدرسين ولم يأل جهداً في تسهيل الدروس لهم بالتدريس والتأليف، حتىٰ مات فى المدرسة الّتى درّس بها سنين طوالاً و دُفِنَ هناك. هذا والقائمون بترجمة حياته جاء وا بِنُبُذةٍ وجيزةٍ عنها لاتزيد عدّة سطورٍ فحاولنا سرد أحوالهِ بشيءٍ من الإسهاب مستنتجين من المعلومات الّتي توفّرت لناعنه.

أسرته:

إن المصادر(١) عن ترجمة الشيخ يوسف بن الجمال الحسيني لاتصرّح عن أسرته بشيء يعتمد عليه ولكنه توجد فيها إشارات قد تدلّنا على مانتمكن به من نسب أسرته إلى ذويهم الأوّلين:

١- أوردت المصادرُ كُلّها كلمة ''سيّد'' قبل اسمه كأنَّ تلك الكلمة لقب له أوجزء لاسمه ومِن المتعارف عليه أن أهل شبه القارة لايُورِدون هذه الكلمة قبل اسم رجلٍ إلّا إذا كان منتمياً إلى الحسنؓ أوالحسينؓ ابني عليؓ بن أبي طالب صهر رسول اللّٰه وابن عمّه.

٢- أورد الشيخ عبدالحي الحسني اللكهنويّ كلمة ''الشريف'' قبل اسم يوسف بن الجمال الملتانيّ في ''النزهة'' ومن المعلوم أن كلمة ''الشريف'' تتداول عندالعرب بمعنى كلمة ''السيّد'' عند أهل شبه القارة.

٣- وردت كلمة ''الحسينيّ'' بعد اسم يوسف بن الجمال في المصادر كلّها فوجود كلمة ''السيد'' قبل اسمه و كلمة الحسينيّ'' بعد اسمه يدّلُ على كونه شريفاً من سلالة الحسين بن عليؓ.

٤- صرّحتِ المصادرُ بأن أجداد الشيخ وأسلافه كانوا من مشهدٍ في فارسٍ (الإيران حاليّاً) وشهد التاريخُ بأنَّ الأشراف من مشهدٍ في فارسٍ انتقلوا إلى الهند يطلق عليهم كلمة ''المشهديّون'' وكلّ فردٍ من هذه السلالة تأتى كلمة ''المشهديّ'' في آخر اسمه إنباءً عن أسرته النجيبة فبناءً على مامرّت من الإشارات المفيدة نستطيع أن نقول: ان الشيخ يوسف بن الجمال الحسيني الملتانيّ كان من سلالة الحسين بن عليؓ. سكن أسلافه مشهداً في فارسٍ مدّة من الزمان ثم انتقلوا إلى الهند واستوطنوا ملتان.

اسمُه:

ليس هناك شمّة من اختلاف في اسمه هو يوسف بن الجمال(٢) ولم تزد المصادرُ على ذلك شٰيئاً حيث لم تردفيها كنيتُه وكذلك ماذكرتِ المصادرُ بعد اسم أبيه اسماً من آبائه.

ميلادة :

وُلِدَ يوسفُ بنُ الجمال بملتان ونشأ بها إلّا أن تاريخ مولده غير مصرّح به كما

أن حياته الأولى مِن صباه إلى شبابه مازالتْ تَحتَ ستارِا لغموض لم يكشف عنها النقابَ أحدُ‘‘ من مترجميه فلذلك لانتمكّن من الوقوف على أحوالِه كطفلٍ صغيرٍ و دارسٍ مبتدئٍ ثم طالبٍ متقدمٍ.

طلبه للعلم:

سكتت المصادر عن طلبه العلم واهتمامِه به كما أنّها لم تُنبِئُنَا شئياً عن المعلّمين الّذين تلمذ عليهم وأخذ منهم ولم تُخبر عن المدارس الّتي تعلّم و تخرّج فيها وكذلك نرى من الضروري تنبيه القرّاء الكرام إلى أن الشيخ عبدالحق المحدث الدهلوي أورد بأن الشيخ يوسف بن الجمال قرأ على جلال الدين الرومي(٣) وهوقول فيه نظر لأن يوسف بن الجمال الحسينيّ جاء إلى دهلي في عهد الملك فيروز التغلقيّ أوّل مرّةٍ فانتخبه الملكُ مدّرساً بمدرسته الكبيرة الّتي أنشأ ها بدهلي على الحوض الخاص وكان جلال الدين الرّوميّ مدرّساً بتلك المدرسة من قبلُ فأصبحا كلا هما مدرّسين بالمدرسة نفسها فصارا زميلَينِ في التدريس. ومن المفروض أن تكون بينهما رابطة الزمالة لكونهما مدّرسين بمكانٍ واحدٍ بدلًا من أن تكون بينهما رابطة المتعلّم وإن قيل: إن يوسف بن الجمال الحسينيّاستفاد من جلال الدين الروميّ زَمَنَ اجتماعهما كمدرّسين بالمدرسة الفيروزيّة فذلك أمْرُ‘لا يُنبِئنا عن شأن دراساته الأولى شئياً لأنه وقتئذٍ كان قد اجتاز مرحلة عمره الّتي تصلح لطلب العلم عُرفاً ويكون لها أثرها البازرفي تكوين شخصيّة الدارس العلميّة وكان يوسف بن الجمال الحسينيّ حينما قدم إلى دهلي قد تضلع بالعلوم وجمع من المعارف واكتسب من البيان ماتأثر بها الملكُ فيروز التغلقيّ فولّاه مهمّةَ التدريس في أكبر المدارس بعاصمة الملك وكلُّ ذلك يدلّ على أنه كان قدتلمذ على غير جلال الدين الروميّ من الأساتذة من قبل في نشأته الأولى الّتى تكونت منها شخصيّته العلمية البارزة. ومن المحتمل أن صاحبنا نال من العلوم فى مدرسةٍ ما من مدارس ملتان لأنه من البديهيّ أن طالباً في صغرهِ أوّلُ مايبدأ من حياته العلمية هوأنه يتوجه إلى مدرسة من مدارس بلدته ثم يرحل إلى المدارس

الأخرى في البلدان البعيدة فربّما ذهَب صاحبنا إلى مدرسة من مدارس ملتان أوما جاور ها من المدن فاكتسب بها من العلوم وتخرّج فيها ثم قصَد إلى دهلي عاصمة البلاد يبتغي من فضل اللّٰه.

قدومة إلى دهلي وقبوله مهمّة التدريس بالمدرسة الملكيّة:

ذكرتِ المصادرُ أنّ الشيخ يوسف بن الجمال الحسينيّ الملتانيّ غادر ملتان لدهلي في عصر الملك فيروز التغلقيّ و ورد الشيخ إلى دهلي و هو يلبس الزيّ العسكريّ وقد تأثرالملك فيروز التغلقي بعلمه كما أشرنا سابقاً وعيّنه مدرّساً في المدرسة الفيروزيّة تقديراً لما لاحظ فيه من العلم والفضل والخبرة (٤) وكانت المدرسة مركزاً للعلم يدرّس بها عددٌ من المدرّسين وقد كتب عنها الشيخ عبدالحي الحسنيّ اللكهنوي قائلاً: ''وفيها من المدرّسين جماعات يدرّسون في كلّ علم معقول و منقول منهمالشيخ جلال الدين الروميّ وصاحبه يوسف بن الجمال الحسينيّ ''. (٥)

وصرّح أبو الحسنات الندويّ بأنه اجتمع في تلك المدرسة مشاهير المدرّسين(٦) ولم تذكرِ المصادرُ أسماء هم ومن ثم لم نطلع عليها إلّا أنّه برز منهم مدرّسان عالمان وهما الشيخ جلال الدين الروميّ والشيخ يوسف بن الجمال الحسينيّ الملتانيّ. وكتب ضياء الدين البرنيّ عن الشيخ جلال الدين الرومي ما معناه: ''الشيخ جلال الدين الروميّ أستاذٌ ماهرٌ جدّاً يدرّس العلوم الدينيّة ويقوم بتعليم الطلّاب دائماً ويعلّمهم التفسير والحديث والفقة.'' (٧)

وأما الشيخ يوسف بن الجمال الحسينيّ الملتانيّ فكتب عنه أبوالحسنات الندويّ باللغة الأرديّة ما معناه: ''وكان الشريفُ يوسفُ بنُ الجمالِ الحسينيّ رئيس المدرّسينَ بالمدرسة الفيروزية.''(٨)

وكفى له فضلاً وشرفاً أنّ الملك عيّنه مدرّساً بالمدرسة الملكيّة ثم ترقّى صاحبنا إلى منصب رئاسة المدرّسين فتعيين الملكِ إياه هناك كمدرّسٍ و ترقيته إلى درجة الرئاسة في المدرّسة الملكية بالعاصمة مع كونه رجلاً من مدينةٍ بعيدةٍ عن

حاضرة الملك يدّل على علّو كعبة و رسوخه في العلم ومهارته في مهنة التدريس وقيامه بأداء الواجب فيه وحسن تصرّفه في الأمور و مكانته الساميّة عندالحكّام.

وكذالكَ لم تحدد المصادرُ سنة قدومة إلى دهلي ولا سنة تعيينه كمدرّسٍ بالمدرسة الفيروزيّة غير أنّها ذكرت أنه أقبل إلى دهلي لابساً زِيّ الجندّيةِ في عهدالملك فيروز الفتغلقيّ الّذي تولّى العرش سنة ٧٥٢ه إذأسّس المدرّسةَ الفيروزيّةَ بدهلي سنة ٧٥٣ه (٩) فمن اللازم أن الشيخ يوسف بن الجمال الحسينيّ قد جاء إلي دهلي بعد تأسيس الملك فيروز التغلقيّ المدرسة الفيروزيّة، فمن المحتمل أنّه ورّد إلى دهلي سنة ٧٥٣ه أم بعد ها بقليل إذالمعلومات المتوفرة لاتفيدنا كثيراً فى هذا الصدد وبما أنّ المصادر قد صرّحت بأنّ الشيخ دَخل دهلي وهو يلبس زيّ الجندية فيتبيّن منه أنّه لم يكن مُسِنّاً ولم يكن يتجاوزِ الأربعين مَن عمره آنئذٍ لأنّ زيّ الجنديّةلايلبسه إلّا من كان عمره يتراوحُ بين خمس عشرة و بين أربعين سنة ولا يُقبل الرجالُ في العسكر إلّا في هذه الفترة من عمرهم لكونهم صالحين للقتال والدفاع وأمّا اتّشاحه بِزِيّ الجنديّة فربّما اضطرّه ضيق المعيشة إلى أن يسافر إلى دهلي ويكافح للحصول على الوظيفة الحكوميّة ولو كانت بالجيش الملكيّ ولكن فراسة السلطان فيروزالتغلقيّ جعلته أن يتأثر بشخصيّة هذا الوارد العلميّة أكثر منه بشخصيتّه العسكريّة وارتأى أن يوظف عالماً مثل الشيخ يوسف بالدوائر العلميّة بدلاً من أن يستخدمه في معسكراته الملكيّة فثبت فيما بعد أن ما ارتأه السطان فيروز التغلقيّ أصبح صحيحاً مئةً في المئةِ حيثُ أفنى الشيخ الملتانيّ عمره في التدريس و أضاف إلى شروح الكتب الدراسيّة حسب المنهج المقرّر أنذاك تلبيةً لحاجة الطلاّب إليها ونظراً لتسهيل المواد الدراسيّة لهم فان دّلّ هذا فدلّ على انقطاعه إلى التدريس و إخلاصه للتعليم و تكريس مواهبه للمهنة توقيف نفسه لها.

وفاتُه:

أجمعت المصادر على أنّه توفى سنة ٧٩٠ه/ ١٣٨٨م بدهلي و دفن بها في

المدرسة الّتى درّس و أفاد بها سنين طوالاً . (١٠)

ثناء العلماء عليه و تعظيمهم له:

مـما لا مرية فيه أن لثناء العلماء على رجلٍ و تعظيمهم له قيمةً فيطيب لنا أن نذكر بـعـض الآراء الّتـي عثرنا عليها بين طيّات الكتب الّتي ورد فيها ذكره قال عنه فقير محمد الجهلميّ (ت : ١٣٢٣ھ) ''كان عالماً فاضلاً فقيهاً أصولياً'' (١١)

وكتـب عـنـه الشيخ رحمٰن علي النارويّ (ت: ١٣٢٥ھ) : ''كان يجمع بين المعقول والـمـنـقول''.(١٢) وإليك ماكتب عنه الشيخ عبدالحيّ الحسنيّ اللكهنويّ (ت: ١٣٤١ھ) بـلفظه: ''السيّد الشريف العلامة يوسف بن الجمال الحسينيّ الملتانيّ أحد كبار الفقهاء الحنفيّة'' (١٣)

إسهامه في تدريس العلوم الإسلامية واللغة العربية:

مـع أنّ مـعـظـم أحـوال الشيخ يوسف بن الجمال الحسينيّ الملتانيّ تحت ستار الـغـمـوض إلاّ أنّـه بـعـد أن عـرفـنـاه مدرّساً في المدرسة الملكيّة بدهلي نراه مواصلاً جهـوده فـي تـدريـس الـعلوم المختلفة و علوم اللغة العربية إلى أن قضى نحبه وليس بـغـريـبٍ أن يـحتـلّ مـكـانةً رفيـعةً عـنـدالـحكّام وكّل ذالك راجع إلى جهوده الجبارة و نشاطاته المعتبرة مما خوّله أن يتولى زعامةتلك المدرسة بدهلي.

وكـمـا أنّـه كـافـح كـفـاحـاً فـي نشـرالـدراسات الإسلاميّة و علوم اللغة العربيّة وتـرسيخها في أذهان الطلاّب و تقريبها إلى وعيهم فكذلك أفاد الطلاب بإنتاجه العلميّ الـرّصيـن أيـضـاً حيـثُ قـام بشـرِح كتـابيـن مـن كتب المنهج الدراسيّ آنئذٍ وهما: ''لب الألباب في علم الاعراب'' للبيضاويّ و''منارالأنوار'' للنسفي.

الشرح اليوسفيّ للبّ الألباب في علم الإعراب:

مـمّـا لامـجـال فيـه لـلاختلاف هو أهميّة النحو للدارسين الناشئين والمتقدمين لـلـعـلـوم الإسـلامية والـلغة العربية فألّف فيه النحويون في كلّ عصرٍ عديداً من الكتب

منها ''الكافية فى النحو'' لأبى عمرو عثمان بن عمر المعروف با بن الحاجب المالكيّ النحويّ (ت: ٦٣٦ھ) وكافية ابن الحاجب لها شأن في الدوائر العلميّة. ولك كفاية فيما كتب عنها الشيخ الحاجي خليفة بلفظه:

''وهي مختصرة معتبرة شهر تها مغنية عن التعريف.''(١٤)

واختصرها أبو الخير عبدالله بن عمر الشافعيّ البيضاويّ (ت : ٦٩١ھ) وسمّا ها ''لبّ الألباب في علم الإعراب'' وإليك ماكتب الشيخ حاجي خليفة عن ''لبّ الألباب۔'' بلفظه:

وهو منطوٍ على فوائد جليلة جليّة، متكفّل لغرائب النحو
لوجازة أالفاظ عبقريّة قد ذكر فيه ماهو الواجب مماتركه
ابن الحاجب''(١٥)

فاشتهر مختصر البيضاوي المسمّىٰ ب''لبّ الألباب'' في الديار الهنديّة وأدخلها العلماء في المنهج الدراسيّ النظاميّ المتداول بمدارس شبه القارة الهندية في بداية القرن السابع الهجريّ وما زال متداولاً فيها لعدّة قرونٍ (١٦)

ومن المفروض أنّ الشيخ يوسف بن الجمال الحسينيّ الملتانيّ درّس ''لبّ الألباب۔'' مراراً في حياته التدريسيّة واطلع على عويصاته فشرحه نظراً إلى تلك المعضلات تلبيةً لحاجة الطلّاب وذكر الشيخ عبدالحق المحدث الدهلوي أنّه شرحُ' طويلُ' وأسلوبه سهلُ'. (١٧)

وأصبح الشرح من التراث المفقود إذلم نجد إشارةً إلى وجوده في مكتبة مامن مكتبات العالم.

توجيه الكلام في شرح منار الأنوار:

ألف أبوالبركات عبدالله بن أحمد المعروف بحافظ الدين النسفيّ (ت: ٧١٠ھ) ''منارالأنوارفي أصول الفقه'' . فحصَل له القبولُ العامُ في الأوساط العلميّة. قال الشيخ الحاجي خليفة عنه:

''وهو متنُ' متينُ' جامعُ' مختصرُ' نافعُ' وهو فيما بين كتبه المبسوطة

ومختصراته المضبوطة أكثرها تداولاً، أقربها تناولاً وهو مع صِغَرِ حجمهِ، ووجازةِ نظمِه بحرُ' محيطٌ'' بِدُررِ الحقائقِ، وكنزٌ'' أُوْدَعَ فيه نقودَ الدقائقِ ومع هذا لايخلو من نوع التعقيد والحشو والتطويل'' (١٨)

هذا وقد أصبح كتاب ''المنار'' متداولاً بين أصحاب العلم فأدخله القائمون بأمور التربيّة والتعليم وأولوخبرة التدريس في المقرّرات الدراسيّة (١٩) في مدارس شبه القارة الهنديّة فاعتنوا بشرحه وعلى رأسهم الشيخ يوسف بن الجمال اللملتانيّ (ت:٨٩٠ھ) فَشَرَحَ ''المنار'' و سمّاه ''توجيه الكلام في شرح منار الأنوار''(٢٠) ثم شرحه سعدالدين أبوالفضائل محمود بن محمد الدهلويّ (ت: ٨٩١ھ) وسمّاه ''إفاضة الأنوار في إضاءة المنار'' (٢١). ثم شرحه الملاّ أحمد بن أبى سعيد المعروف بالملاّجيون (ت: ١١٣٠ھ) وسمّاه ''نورالأنوار في شرح منار الأنوار'' (٢٢) أمّا الشرحان الأوّلان من هذه الشروح الثلاثة فقد اندرسا بمرور الأيام وبقى لهما الذكر في غضون الكتب فيما أنتجه علماء هذه الديار من شروح الكتب المؤلّفة حول أصول الفقه، وأمّا الثالث فتداول بالدوائر العلميّة وحلّ محلّ ''كتاب المنار'' ولم يزل يُدرّسُ بها إلى يومنا هذا. ويطيب لنا أن نذكر أن توجيه الكلام في شرح المنار'' هو أوّل شرح للكتاب المذكور ألفّه عالمٌ'' هنديٌّ'' ثم تابعه عالمان إلاّ أنّ الفضل للمتقدم.

الهوامش

١- وردت ترجمته فى أخبار الأخيار ١٧٣، وحدانق حنفيه ٣٢٦ و تذكره علمائے هند ٢٥٦ ونزهةالخواطر ٢/١٨٢، ١٨٣.

٢- المصادر ذاتها.

٣- ومن المفيد الإستارة الإشارة إلى أن جلال الروميّ هذا هو شخص غير جلال الدين رومي صاحب المثنوى المعروف باللغة الفارسية وللتعرف على جلال الدين الروميّ المذكور في متن هذا المقال أنظر نزهة الخواطر ٢/٢٣.

٤- نزهة الخواطر ١٨٢/٢.

٥- المصدر نفسه.

٦- هندوستان کی قدیم اسلامی درسگاہیں، ٢٠.

٧- تاريخ فيروز شاهی، ٧٩٠.

٨- هندوستان کی قدیم اسلامی درسگاہیں، ٢٠.

٩- تاريخ مبارك شاهی، ٢١١.

١٠- أخبار الأخيار ١٧٣، وحدائق حنفيه ٣٢٦، وتذكره علمائے هند ٢٥٦، ونزهة الخواطر،١٨٢/٢.

١١- حدائق حنفيه، ٣٦٦.

١٢- تذكره علمائے هند، ٢٥٦.

١٣- نزهة الخواطر، ١٨٢/٢.

١٤- كشف الظنون عن أسامی الكتب والفنون، ١٣٧٠/٢.

١٥- المصدر نفسه، ١٥٣٦/٢.

١٦- هندوستان کی قدیم اسلامی درسگاهیں ٩١، برصغير پاك و هند کے قدیم عربی مدارس کا نظامِ تعلیم ١١.

١٧- أخبار الأخيار ١٧٣.

١٨- كشف الظنون ١٨٢٣/٢

١٩- هندوستان کی قدیم اسلامی درسگاہیں ٩١، برصغير پاك و هند کے قدیم عربی مدارس کا نظامِ تعلیم ١٠، ١١، ١٢

٢٠- الآداب العربية في شبه القارة الهندية، ٣٠٧.

٢١- كشف الظنون ١٨٢٤/٢، و نزهة الخواطر ١٣٠/٣

٢٢- المصدر نفسه ٢٣/٦

المراجع و المصادر المعتمدة فى البحث

١- ***أخبار الأخيار،*** (باللغة الفارسية) الشيخ المحدث عبدالحق الدهلوي، مطبع أحمدى، (الهند) ١٣٧٠ھ.

٢- ***الآداب العربية في شبه القارة الهندية،*** وهو ترجمة *"The Contribution of India to Arabic Literature"* ألفه الدكتور زبير احمد و نقله من الإنجليزية إلى العربية الدكتور عبدالمقصود شلقامي، بغداد ١٣٩٨ھ/١٩٨٧م.

٣- ***برصغير پاك و هند كے قديم عربى مدارس كا نظامِ تعليم،*** (باللغة الأردية) الأستاذ بختيار حسين صديقي، لاهور، اداره ثقافت اسلايه، ١٩٨٢

٤- ***تاريخ فيروز شاهى،*** ضياء الدين برنى (نقله من الفارسية إلى الأردية الدكتور معين الحق) لاهور، ١٩٨٣م.

٥- ***تاريخ مبارك شاهى،*** يحي بن أحمد سرهندى (نقله من الفارسية إلى الأردية الدكتور أفتاب أصغر)، لاهور ١٩٨٦م.

٦- ***تذكره علمائے هند،*** (باللغة الفارسية) الشيخ رحمان على الناروي، لكهنئو، ١٩١٤م.

٧- ***حدائق حنفيه،*** (باللغة الأردية) الشيخ فقير محمد الجهلمى، لاهور (الطبع الرابع)

٨- ***كشف الظنون عن أسامى الكتب والفنون،*** الشيخ مصطفىٰ بن عبدالله المعروف بحاجى خليفه، بيروت، ١٤١٠ھ.

٩- ***نزهة الخواطر و بهجة المسامع والنواظر،*** (الشيخ عبدالحي الحسنيّ اللكهنوي، ملتان، طيب اكادمى، ١٤١٢ھ/ ١٩٩١م.

١٠- ***هندوستان كى قديم اسلامى درس گاهيں،*** (باللغة الأردية) أبوالحسنات الندوي، اسلام آباد، نيشنل بك فاؤنڈيشن ١٩٨٩م.